مقدمة

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت للمرة الاولى الى الولايات المتحدة. فلم اكن اعرف غير اليسير من اللغتين العربية والفرنسية، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تُسمعه الامهات في لبنان صغارهن. هس، جا البدوي! والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام «بعبعاً» تخوف به اولادها.

هجرت وطني وفي صدري الخوف من اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم. والبغض والخوف هما توأما الجهل.

اما الامة الفرنسية فما كنت اعرف من امم الارض سواها. ولكنها معرفة مطوّسة. كانت المدارس تنشر اذنابها في لبنان: ان فرنسا لأعظم امم الارض، هي اشرفها واغناها وارقاها. بل هي قطب المدنية، وعاصمة النور والجمال – هي الطاووس بين الامم.

اما اميركا فقد كنت في ما عرفته منها بعيداً عن الام وعن المدرسة. تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه. ومع ذلك فلم تخلُ مما تميّزت به الكأسان الاوليان. رشفت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألىء.

غدوت بعد عشر سنين في اميركا معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا. وما كان خوفي على الامة الاميركية

وانا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتممت له ونقطة الدائرة في كل ما ملت اليه . خفت ان اغلب في ذاك الجهاد، اشفقت على نفسي من ذاك التكالب .

ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفا وترددا في مضمار الحياة . صرفتني عن حقائق الوجود المادية ، وزيّنت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت في نيويورك كئيباً يحمل كتاباً ، وغاوياً من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سبهللاً ! فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور .

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الى من كان مثلي . فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم اتخلق مثل سواي من السوريين هناك باخلاق الاميركيين كلها . والفضل في ذلك هو لفيلسوفهم امرسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم (١)

وقد عرّفني امرسون الى كرليل ، وكان كرليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب . اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بوساطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمداً (٢) فأحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم .

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقتني الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشيء اكرهه او احب .

---

(١) السجايا الانكليزية English Traits by Ralph Waldo Emerson

(٢) الابطال Heroes and Hero-Worship by Thomas Carlyle

مقدمة

قرأت كتاب الاهمبرا [1] فأدركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت ان الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث اليّ ، وانا بعيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركياً يصف لي محاسن ابنائك .

بعد ان قرأت كتاب الحمراء مـــازج عقليتي الاميركية الفرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت احلم بذاك المجد الماضي احلاماً تمثلني حياً فيه او تمثله حياً امامي .

عدت الى بلادي كئيباً يحمل كتاباً ،ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابهـــا غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي . وبينا انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفاً في البصرة والكوفة .

جمعني الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هداني بوساطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي .قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها متونحاً ورحت افاخر باني من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

*

عدت الى اميركا استصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك . فـاقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في

---

(١) الاهبرا The Alhambra by Washington Irving

الارض دائمة . وصوروا الارض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبدالله القرشي وامرؤ القيس الكندي ، الشعر والنبوءة والدهناء ، والواحات في بحار من الرمل، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم ،وتهز جذوعها السموم ، وصوت الساقية وهي تغني للارض المنعمة في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغني لجمل الساقية — وماذا في نيويورك ؟

ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف [١] وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذ بطريركاً عظيماً [٢] يحدثاني عن شمّر والقصيم والعارض والرياض. وذاك المستعرب بُركهارت [٣] وقد دخل الى مكة حاجاً ،مسلماً صادقاً نقياً. وهذا العلامة برُتن [٤] يقص قصة عجيبة بطلها بزّاز من سمرقند قدحمل الكيس — تفتا هندي شاش حرير يا بنات ! ليكشف له اسرار الحريم ثم ركب العيس ، وكان دليله ابليس ،فاقتفى اثر بُركهارت لغرض في النفس ،ونظم قصيدة كفرية كفر بها عن كل مآتيه في التلبيس .

وهذا خليل [٥] الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو ، فقاسى في رحلته الاهوال، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال. اضطهد في بريدة ،

---

(١) قلب البلاد العربية وشرقها — Central and Eastern Arabia by W. G. Palgrave

(٢) البطريرك الحريجيري .

(٣) سياحة في بلاد العرب — Travels in Arabia by J. L. Berkhardt

(٤) الحج الى مكة والمدينة — A Pilgrimage to Al-Medina and Mecca by Richard F. Burton

(٥) التجوال في البلاد — Wanderings in Arabia by Charles M. Doughty العربية تأليف شارلس دوطي وقد انتحل اسم خليل .

وطرد من عنيزة، وسُلب وضرب، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في جيبه غير خمسة ريالات، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتلبيس. الدرويش خليل، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه. خليل النصراني، جاء بتعصب اسكتلندي يثير في العرب التعصب الاسلامي. خليل النصراني الكافر! قطوا رأسه بالسيف! ولكن الله اخرجه من شبه الجزيرة حياً ليكتب كتاباً لا يموت.

وكل هؤلاء من الاجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد اجدادي، ويخاطرون بانفسهم فيهاحباً بالعلم، فيكشفون منه المخبأ، ويجلون المصدأ، ويقربون البعيد، ويغربون في اللذيذ المفيد. وانا في نيويورك كئيب يحمل كتاباً، ويطرق للمحرر الاميركي المتغطرس باباً. اديب شعره طويل، وصدره عليل، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات. آلة كاتبة، يرقص حولها الهم والامل متخاصرين. اف لها من زوجة نقاقة، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة، واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخبث. طلقتها ثلاثاً، وعدت الى بلادي اعد العدة لرحلة تبعدني عنها وعن الكتب والمجلات. والادباء والاديبات.

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها. كسر هاذات يوم فأثار السلطة عليه، فصفع السلطة وفرّ هارباً الى الفريكة، فحل فيها اهلاً ونزل سهلاً — سهلاً في القلوب ومنحدراً في الوادي. اقام محمد كرد علي عندنا اسبوعاً عددناه من شوارد الزمان. الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين. سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال: لا تنخدع يا امين. الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم سادة رعاديد. لا بأس بالهمس: والحمدلله! ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلي.

فقلت : صدقت ، وفي نيتي ان اهجر حتى هذا الوادي ،في نيتي رحلة الى البادية ،الى البلاد العربية على هجين يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية . فهلل صديقي وقال : نسير معاً . واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود.

لكن الايام عدوة الاحلام ، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب . تعقّبت السلطة الاثيمة صديقي كردعلي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكه ويفر هارباً من سوريا . ثم سافر الى اوروبه فذاق من حلو المدنية فيها ما استلذه فاستزادها . فقالت له : عد فعاد ، فتعددت رحلاته من المشرق الى بلاد المغرب واثمرت ثماراً طيبة تجدها في كتابه القيم «غرائب الغرب».

اما انا فقد طوحت بي الاقدار وابعدتني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية كلها . عادت بي الى نيويورك . ثم نكبت الانسانية بالحرب العظمى فزلزلت الارض زلزالها ، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشراً مسلحاً محارباً ، وقضت ، في الكثيرين ممن استبقت ، على جميل الاحلام والآمال .

*

ومن الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك تزعجه وان شاخت ، فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها .

رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب ، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية فكنت اقوم في ما اكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب . وتوفقت في تلك الايام الى زيارة الاندلس فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفين كتابه النفيس فسمعت اصواتاً تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوءة .

اكبرت الملك حسيناً الذي استنفر القبائل على الترك وارسل اولاده الامراء الاربعة الى ساحات الوغى. وكان الناس في اميركا يعجبون بالرئيس روزفلت [1] الذي قدم ثلاثة من ابنائه الى وطنه، وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين اول من صورته الآمال ملكاً يفتح لي بابها. وبينما انا افكر في طريقة تحمل اليه امنيتي القصوى، جاءتني مجلة صديقي سليم سركيس وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركة.

واهم من ذلك يومئذ خبر قرأته مدهوشا مسروراً. جاءني الصديق بصديق آخر، وهو من الخلان الاولين الذين كانوا يزورونني في الفريكة بعد عودتي الثانية من اميركا ويشجعونني في اقبالهم على رسالتي كتابة وخطابة في سبيل الاصلاح الاجتماعي. وهذا الصديق هو قسطنطين يني الذي ابعدته عني الحرب العظمى وحرمتني اخباره. فجاء العزيز سركيس، كأنه رسول العناية الي، يبشرني بوجوده في خدمة الملك حسين.

هللت وكبرت. وتناولت القلم وكتبت تواً كتاباً الى العزيز قسطنطين فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال، اولها: هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟ وآخرها: هل ترافقني انت في هذه الرحلة؟ وما مضى الشهر الاول وانتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب وفيه ما يلي:

« اتفق ان وصل كتابك الي وجلالة الملك حسين في جدة فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع ... وهو يرحب بك اذا حضرت. ومن رأيه ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها فهو يساعدك على زيارة الحجاز من اقصاه الى اقصاه، ويعطيك المعلومات اللازمة، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين

(١) ثيودور روزفلت، رئيس الولايات المتحدة (١٩٠١ – ١٩١٢)

الدول من مطلع النهضة الى اليوم ليكون في استطاعتك تأليف كتاب عن العرب مستوف من جميع ابوابه . ومن رأيه انك متى درست اخلاق قبائل الحجاز تكون درست اخلاق بقية القبائل لانهم كلهم متقاربون بالعادات والمشارب .. اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز ... والسياحة توافق ان تكون في فصل الشتاء ولا تستغرق اكثر من اربعة اشهر ولو انتهت في بغداد ... واني بكل سرور ارافقك حيث شئت ... اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للاسباب المعروفة ... والسياحة تكلفك لا اقل من خمسمئة جنيه . »

في هذه المعلومات يبدو للقارىء شيء من سؤالات سألتها ولم اقف فيها عند حد من التحفظ والمداراة . ولا لوم علي ، وانا بعيد حقيقة وعلماً عن البلاد العربية ، اذا استنرت بكل ما ينيرني في رحلتي قبل ان اقدم عليها . ولكن سؤالي عن زيارة الكعبة ، وانا مسيحي ، يليق باميركي لا يعرف من العالم غير بلاده ، فاذا قيل له انه لا يؤذن للمسيحي بالدخول الى مكة اعتراه الدهش والعجب .

اما انا فما دهشت ولا اسفت . بل كنت اعلل النفس بتحقيق امنيتي بعد ان اقابل جلالة الملك . كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الاصلاحية ، ومنقذ العرب الاكبر ، كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب ، والاخاء والمساواة ركنان من اركان النهضة . ما اغرب الاحلام التي كنا نحلمها في بلاد الغرائب وما ابعدها . لا اظن ان من كان قادما من القمر او المريخ يحلم احلاما اغرب منها واعجب .

وفي معلومات قسطنطين مما استرعي له نظر القارىء ايضا قول جلالته : « ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها . » ولكنني لم اتقيد بهذا القول

لانني كنت اعرف في الاقل اوليات الجغرافية العربية، وأتأكد ان «من يزور الحجاز من اقصاه الى اقصاه» لا يكون قد زار البلاد العربية كلها ولا جزءاً كبيراً منها. وهناك غير ما تقدم من المعلومات التي عرفت فيما بعد القصد السياسي فيها . وما كان صديقي غير ناقل في اكثرها كلام جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر ان ازور غير الحجاز . وقد خبر قسطنطين ما خبرته في اليمن وعسير مثلا بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعادات. وتأكد مثلي ان من يحصر زيارته بالحجاز لا يستطيع ان يؤلف كتاباً عن العرب مستوفيا من جميع ابوابه. وادرك بعد رحلتنا الاولى من جدة الى عدن بان نفقات السياحة ستكون ضعف ما ذكر ، وان مدتها قد تتجاوز السنة ولا سيما اذا تمكنت من السياحة في نجد . وما كانت زيارة الرياض وابن سعود بالامر المستحيل. على انني اذا ما ذكرتها الان اضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها الى الملك حسين .

*

وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من امراء العرب غير الحسين بن علي، وكلهم ملوك وان اختلفت الالقاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً. فاننا اذا استثنيا الملك حسيناً وابنه الملك فيصلاً قد لا نجد بينهم ، من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة، او يعرف من الاقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه.

وليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها، وليس فيهم من يستطيع ان يقول : انني اعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها واحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية

والخارجية مما لديّ من تقارير العارفين واخبار المنزهين عن الاغراض السياسية والتحزبات المذهبية . ولا استثني من هذا القول الملك حسيناً او الامام يحيى او السلطان عبد العزيز آل سعود .

قد يكون الملك حسين اكثرهم علماً باحوال سكان البلاد من بدو وحضر ،وبمذاهبهم ونزعاتهم ونعراتهم وعداواتهم وسياسة امرائهم ، لان مركزه المشرف بالكعبة التي يحجها المسلمون من البلادالعربية كافةبل من اقطار العالم الاربعة يساعده على ذلك . وقد يعرف من احوال جارَيه الادريسي وابن سعود ما يستطيع ان يستند اليه فينفعه في سياسته الحجازية ولا ينفعه بل قد يضره في سياسته العربية . اريد بذلك ان علمه ، وان تجاوز ما يتناول قبائل نجد وعسير وما يستطيع كل من حا كميها ان يجند من الناس ويجمع من المال ،ومن لهم النفوذ الاكبر في بلاديها ، فلا يصل ذاك العلم الى عقلية الادريسي مثلاً او الى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية . ان لسلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتين لا ثالثة لهما . صورة تجسم نبوغه فلا يكترث بها وصورة تنفي ذاك النبوغ فيعول عليها فكيف السبيل مع هذا الجهل الى التفاهم والولاء ؟

اما الامام يحيى فلاشك انه يعرف ،وهو العالم الاكبر في امراء العرب ، اقطار اليمن وعسير وحضرموت وبعض الحجاز معرفة حقيقية تامة . ولكنه يجهل البلاد النجدية وسلطانها وحقيقة حال اهلها من بدو وحضر . او انه لا يكترث بذلك . ولا شك ان السلطان عبد العزيز اكثر ملوك العرب علماً بالقبائل والعشائر في نجد والحجاز وبلاد الشمال وفي مسقط وعُمان وما يليها . ولكنه قلما يكترث اذا ذُكر اليمن في غير السياسة . فاذا حدثته عن عادات اهل ذاك القطر القديم واحوالهم الاقتصادية والاجتماعية فكأنك تحدثه عن شعب ليس بعربي فيتفكه ويستفيد .

مقدمة

لست مبالغا اذا قلت ان ليس في البلادالعربية اليوم رجل واحد يعرف البلاد العربية كلها. وليس في العالم اليوم ويا للاسف من يحيط علماًبهذه الاقطار وبشؤونها جمعاء ، بحكامها وقبائلها وزراعتها وتجارتها وخراجها وحروبها،ومشايخها وامرائها، بكل ما يختص بامورها السياسية الداخلية والخارجية غير الحكومة البريطانية او بالحري وزارة المستعمرات فيها. فهي تصدر كتاباً عن البلاد العربية [1] مبنياً على تقارير وكلائها السياسيين والسياح العلماء ، تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات . وهو مع ذلك لا يخلو من الاغلاط اذا نظر في مــــا يختص بكل قطر منه ابن القطر العالم بشؤونه كلها . زد على ذلك ان الكتاب لا ينشر للعموم وقلمـــا يُرى خارج الدوائر الرسمية .

ولا اظن ان من وظيفة الحكومة البريطانية او من واجباتها ،فضلاً عن ميلها ومصلحتها ، ان تعرّف ملوك العرب بعضهم الى بعض، او ان تطلعهم على احوال الاقطار العربية كلها ولا اظن ان احداً من ابناء العرب يستطيع ان يقوم بهذا الواجب دون ان يرحل الرحلة التي قمت بها .

فها انا اذن في هذا الكتاب ، ولا فخر ولا اعتذار ، اعرّف سادتي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات . وليتحقق سادتي ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداهنة ، ولا في النقد تشنيع او تحامل . انمـــا غايتي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين .

✲

---

(١) Manual of Arabia هو كتاب تاريخي احصائي جغرافي سياسي في البلاد العربية تطبعه وزارة المستعمرات وتوزعه على الوكلاء السياسيين والسفراء والقناصل لدولة بريطانيا فقط .

كان قصدي الاول ، عندما سافرت من نيويورك ، ان اسيح في الحجاز واليمن ونجد لعلمي ان في هذه الاقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة . ففي اليمن قحطان ، وفي الحجاز ونجد فرعا عدنان اي مضر وربيعة .

ولكن المشاهدات الاولى غيرت من قصدي فشذبت ونقحت فيه حتى اصبح يشتمل على جميع شبه الجزيرة .

اما الحجاز وان كان من اصغر اقطار الجزيرة مساحة، واقلها سكاناً فهو اهمها مركزاً، واولها في السياسة الدولية مقاماً. وقد صار بفضل جلالة الملك محط رحال الوطنيين المجاهدين في سبيل الوحدة العربية . فقل من لا يعرف شيئاً عنه . الحجاز كتاب مفتوح . واهم ما في الكتاب اليوم بعد الحرمين هو الفصل الذي عنوانه : الملك حسين . النهضة العربية . فقدا كتفيت بهذا الفصل ووليت وجهي الاقطار الاخرى ابغي زيارتها كلها

ولكني لم اتوفق الى ذلك. ازمعت السفر الى حضرموت عندما كنت في عدن، فاجتمعت وانا في بيت شركة البواخر الهندية بربان البويخرة التي سافرت فيها الى جيزان. وكانت هذه المرة تقصد مكلّا ميناء حضرموت فقلت للربان : اني معك ثانية ، فضحك وقال : لا اظنك تهوى الحياة فقلت : واي خطر على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف ؟ فاجاب الملاح الانكليزي : هو فصل الموت — فصل الـ « منصون » [1] .

ثم قال : وليس لمكلاّ ميناء نرسو فيه . وقد لا تسمح الانواء

---

(١) المنصون Monsoon ريح تهب في اشهر الصيف من الجنوب الغربي وتجري في بحري الهند والعرب شرقاً لشمال فتحمل الامطار الى الهند وجنوبي اليمن . وهي ريح صرصر شبيهة بريح السموم في الصحراء تشتد منها الانواء في الاوقيانوس الهندي والبحر العربي اشتداداً يروع حتى الملاحين .

بالرسوّ في عرض البحر . وانت تعرف باخرتي ، عرفتهـــا في هدأة البحر الاحمر ... فكيف في حضرموت ؟ اقبل نصيحتي الخ .

فانتصحت آسفاً . فجاء هذا الكتاب وليس فيه غير بعض الشيء عن حضرموت اخذته عن رجال من ذاك القطر اجتمعت بهم في عدن والحديدة . وهذا بعض نقص في كتابي .

اما مسقط وهو اول بـــلد في شبه الجزيرة دخله الاوروبيون والاميركيون [1] فلظني ان العروبة فسدت فيه لم اعرج عليه وما ملت اليه . وقد اكون مخطئاً فأتوفق في المستقبل الى تلافي هـــذا النقص الآخر في الكتاب .

وهناك عمان وقطر ، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين جنوباً الى مسقط ، وفيها اربع او خمس « مشيخات » مستقلة . فـما عذري فيها ؟ اجيب بكلمة واحدة : العجز .

عندما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتوياً الى حد يخشى مع الزيادة الاستسقاء او بالاحرى امسيت وذهني ونفسي كالاسفنجة وقد امتلأت ماء فلا تحتمل من الزيادة نقطة واحدة . وما رأيت ، وانا في البحرين ، ان ازور تلك « المشيخات » في عمان قبل ان ازور سلطان نجد في الرياض . فلم آسف على ما خسرت في جنب ما كسبت . ولكنني لا ازال اعلل النفس بما فات .

بقي ذاك القطر الجديد في الشمال الغربي الذي أنشأته السياسة الجديدة سياسة « بعد الحرب » وأمّرت عليه النجل الثاني من انجال الملك حسين

---

(١) في ٢١ ايلول ١٨٣٣ عقدت حكومة الولايات المتحدة بواسطة وكيلها الخصوصي ادمون ربرتس Edmund Roberts معاهدة ودية تجارية مع سلطـــان مسقط سعود بن سويد .

الامير عبدالله. فما تلك الامارة في اعتقادي من الامارات العربية الثابتة الدائمة. قد لا تزول في عهد اميرها الاول، وقد يكون اميرها الاول الحامل غداً لواء الاتحاد الى ما وراء الاردن او الى ما دون العقبة وتبوك. اما اذا فازت سياسة التقسيم وثبتت امارة شرقي الاردن فالعذر سلفا الى سمو اميرها، والتفكير ولو مؤخراً اذا ابقانا الله واياه على مسرح الحياة.

*

وفي هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهم العرب خصوصاً والاسلام عموماً، والتي تهم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً، يجدها القارىء في مكانها من البحث. اما الذين لا تهمهم السياسة بقدر ما يهمهم العلم والادب، والاسفار، فقد خصصتهم بقسم مما كتبت.

وليس في الكتاب، ادباً كان اوسياسة، وصفاً اونقداً، الا الحقيقة غير المجردة، لان في التجرد، في العري، شيئاً من سوء الادب، ولا سيما اذا كان المجردِ والمجرَّد في الغربة. ولا ينسى القارىء، اني جئت الى البلاد العربية من ارض قصية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى. ثم سحت في بعض ارض الهند حيث يستشعر الناس الهواء ولا يلبسون احياناً غير نسيج من الشمس والغبار. فسئمت التجرد ولكنني لا اخفي الحقيقة في ما ألبسها وكأنني بالقارىء يقول: ان في احتجاجك على العري شيئاً من الدهاء. فاعتذر اليه في ما قد يعد مكابرة اذا اعترفت بالذنب. نعم، وفيه كذلك شيء من تلك الصناعة التي يندد بها ارباب الدين على الدوام، وتمارسها على الدوام النساء.

وما الضرر في اليسير من المساحيق والالوان، وفي المهلهل المطرز

من الكساء؟ اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة فهي في ثوبها المهلهل اجمل . واذا كانت تؤلم فهي في زينتها ادعى الى الالم والحزن . إلا انها في كل حال لا تجالس التعصب ، ولا تدنو من التشيع والتشنيع . فمن هذه الوجهة لك ان تحسبها مجردة كل التجرد .

وقد تجيء في بعض الامـــاكن ناقصة او مخطئة ، شأن كثير من الامور والافكار البشرية . ذلك لان النقص في كل ما يرى ويـدرك موجود ، والخطأ لا يستدرك كله . فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي ، ولا عذر مع جهد تناهى .

على اني متيقن ان كل من يطالع الكتاب من الناطقين بالضاد مهما يكن علمه في البلاد العربية واهلها يجد فيه بعض الجديد المفيد . ولاخواني الادباء خاصة ، في سوريا كانوا او في مصر واميركا، اقول : تعالوا سيحوا معي فتعودوا الى ما ابعدكم عنه التفرنج والتأمرك ، الى حقائق لمسنا ظلها في اداب العرب القديمة ، والى حقائق انستنا اياهـا الايام والغربة ، والى حقائق يجهلها كثيرون حتى من العرب انفسهم ، والى حقائق ننقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة .

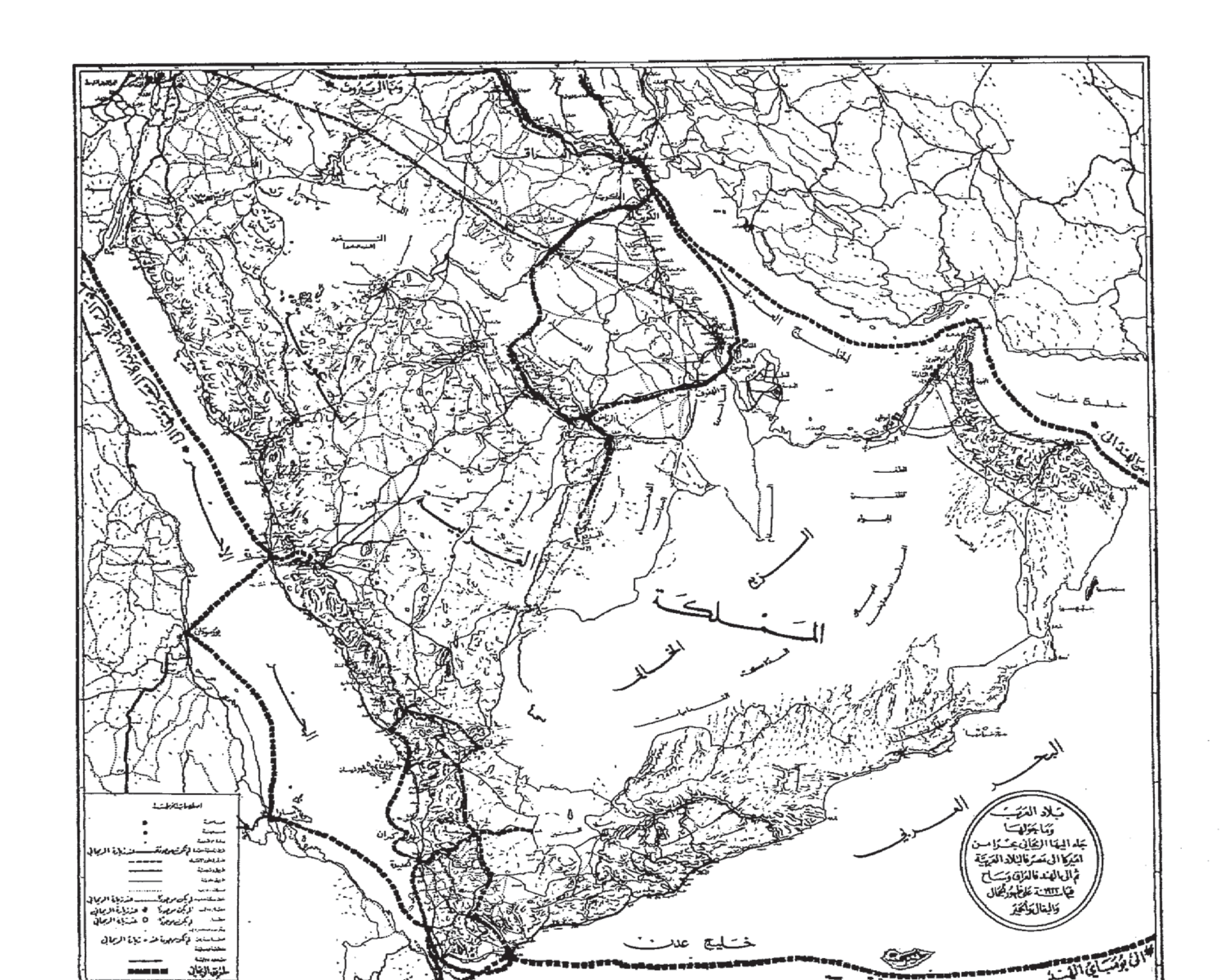
تعالوا سيحوا معي فتعودوا الى بـــلاد عجيبة على فقرها ، والى شعب كريم على آفاته ، والى امة حرة ابية على ذنوبها . ايها الاخوان الادباء ان في اكثر المدارس السورية روحـاً اجنبياً من شأنه ان يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غـير اللسان . ولو استطاع لابعدهم كذلك عن اللسان — لقتل فيهم حب اللغة العربية . وفي البلاد اليوم سياسة توسع الثلمة بيننا وبين العرب وبلادهم . أنظل دائماً حيث كنا مدة خمسين سنة ؟

ان البغض والخوف توأما الجهل ، ومن الجهل مـا يولد الحب

والاعجاب . وان الروح الذي يسعى في ابعادنا عن العرب لا يفلح ان شاءالله في مسعاه . فقـــد بددت الايام والاوهام التي صورت لنا الكمال كله في الامم الاجنبية ، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الاوهام التي صورت لنا « البعبع » في العرب .

امين الريحاني

الفريكة : لبنان
في ٢٧ ايار سنة ١٩٢٤ و ٢٣ شوال سنة ١٣٤٣


بلاد العرب
وما حولها
جاء اليها الريحاني بحراً من
اميركا الى مصر فالبلاد العربية
ثم الى الهند فالعراق وساح
فيها سنة ١٩٢٢ على ظهور الجمال
والبغال والحمير
البحر العربي
خليج عدن
خليج عمان
العراق
الى بومباي الهند